

المثل الأعلى

الحياة معركة نصفها أنت تعرف نفسك
ونصفها الآخر مثل أعلى مناسب في الحياة .

« حكيم »

هذه الكلمة - كلمة حكيم - تشير طريق الحياة ، وتدل على كيفية السير فيه .

هذا الطريق نصفه أنت تعرف نفسك على معنى أن تعرف مواضع النقص فيه لتكملها ، ومواضع الكمال فيها لتنميتها . ونصفه الآخر مثل أعلى ترسمه لنفسك ، ثم تضعه أمامك هدفاً لك ، وتسدد إليه جهودك مسرعاً نحوه على أن تحاسب نفسك آخر كل يوم حين تخلد إلى الراحة من عناء العمل ، وتضرب الحياة ، تحاسبها : كم قطعت في سبيله ؟ وكم يتبقى للوصول إليه ؟ بهذا تصبح « إنساناً » لا ينظر إلى الدنيا من خلال تلك اللوعة العميقة التي ينظر منها الذين يسرون على غير هدى في طريق هذه الحياة . وإنما ينظر إليها من نافذة الدنيا على وجهها الصحيح :

وإذا كان هذا « الحكيم » ، يُشبه الحياة بمعركة . تكسب نصفها إذا هرفت نفسك ، وتكسب نصفها الآخر بأن تحصل على مثل أعلى مناسب في الحياة . فما هو هذا المثل ؟ وهل هناك مثل أعلى يقره الجميع ؟ وما هي القاعدة التي ينبغي أن تقيم عليها مثلك ؟ وإذا كان الناس يتزعون مثلاً من « البيئة » التي يعيشون فيها فما هو « المقياس » الذي يقاس به ، أو ينبغي

أن يقاس به هذا المثل؟ وأخيراً ما سر فشل بعض الناس في هذه الحياة؟ وهل من صورة نتخذها في حياتنا مثلاً؟

كلمة « المثل الأعلى » وردت في القرآن الكريم، فقال تعالى، في (سورة النحل آية ٦٠) « وَرَبِّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »، وأول ما يرد على ذهن من يقرأ هذه الآية . هذا السؤال : أيجوز أمام هذا النص « أن نُسند المثل الأعلى لمخلوق؟

للجواب ينبغي أن نعرف أولاً : ما هو « مدلول » المثل الأعلى الذي أسنده القرآن الكريم إلى الله العزيز الحكيم؟

اتفقت كلمة « المفسرين » على أن « مدلول » المثل الأعلى — في الآية — هو « الصفة المقدسة المنزهة عن المماثلة »، واختلفوا في تحديدها : فالفخر الرازي يقول : هي كونه تعالى « منزهاً عن الولد »^(١) ويُرشح هذا المعنى قوله تعالى في آية سابقة : « وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ النِّبَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ » (النحل ٥٧) وأبو السعود يفسرها بالوجوب الذاتي^(٢) والزنجشيري يفسرها بالغنى عن العالمين^(٣) إلى آخر ما يقولون في تحديد هذه الصفة « المقدسة » .

والغزالي في كتابه « المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى » يقول : « لا ينبغي أن يُظن أن المشاركة في كل وصف توجب المماثلة . أما ترى أن الضدين لا يتماثلان وبينها غاية .

(١) ج ٥ ص ٤٧٦

(٢) ج ٥ ص ٤٧٩ على هامش تفسير « القمير الرازي »

(٣) ج ١ ص ٥٢٩

البعد الذى لا يتصور أن يكون بعد فوقه ، وهما متشاركان فى أوصاف كثيرة . إذ السواد يشارك البياض فى كونه عرضاً ، وفى كونه لوناً ، وفى كونه مدركاً بالبصر ، وفى أمور أخرى سواها

وعلى ذلك فلا يلزم من أن نصف مخلوقاً بأنه موجود مثلاً ، أو بأنه رحيم ، أو بأنه سميع بصير لا يلزم من ذلك أن نكون قد شبهناه بالله تعالى ، وأثبتنا له المثل لأن المماثلة عبارة عن المشاركة فى النوع والماهية : فالفرس مثلاً وإن كان بالغاً فى الكياسة لا يكون مثلاً للإنسان لأنه مخالف له فى النوع ، وإنما يشابهه فى الكياسة التى هى عارضة خارجة عن الماهية المقومة لذات الانسانية ، والخاصية الإلهية أنه الموجود الواجب الوجود بذاته التى عنها يوجد كل ما فى الإمكان وجوده على أحسن وجوه النظام والكمال ، وهذه الخاصية لا يتصور فيها مشاركة البتة (١) .

بناء على ذلك ، ومادمننا لا نريد من مثلنا صفة تنزهه عن صفات المخلوقين فلا مانع من أن تسند المثل الأعلى لمخلوق .

ومدلول المثل الأعلى بالنسبة لنا ، هو الصفة العالية التى ترضى أنفسنا . وهذه الصفة العالية التى ترضى أنفسنا تختلف باختلاف الناس . يعنى أنه ليس هناك مثل أعلى يقره الجميع — اللهم إلا الخير على وجه عام — بل لكل مثله : فهذا مثله « بطل » فى صورة شاعر . وهذا مثله « بطل » فى صورة مصالح اجتماعي . وذاك مثله « بطل » فى صورة كاتب قدير ، أو عالم تحرير ، أو سياسى ماهر ، إلى آخر ما يرسى كل لنفسه من أجل تحقيق أسى نوع ممكن من الحياة .

ومثلك الأعلى هو ما ترضى عنه نفسك ، لا ما يرضى عنه غيرك ، وهو ما تعتقد أنت أنه خير لك لا ما يعتقد غيرك أنه خير لك . فأنت أنت الذى تحدد مثلك ، وأنت أنت الذى تختار طراز الحياة التى تستهويك . ومن هنا يفشل كثير من الناس فى هذه الحياة لأنهم لا يختارون سبلهم بأنفسهم ، وإنما يختاره لهم غيرهم ويجبرون عليه . وفى هذا سر عجز بعضنا عن إبداع عمل عظيم .

والمثل الأعلى عند « أفلاطون » ، شيء مثالى صرف يعنى أنه ليس بضرورى أن يتجسم فى صورة عملية ليكون صحيحاً ، بل هو صحيح وإن قصرت الحقائق الواقعة عن أن تتواءم معه وتبلغ مرتبته . أو : وهو نموذج مقرر فى السماء يحاول البشر أن يحاكيوه ولكنهم لا يستطيعون أن يبلغوه .

وأما عند « أرسطو » فهو « قوة مؤثرة » ، يعنى أن المثل الأعلى يكون أولاً شيئاً « مثالياً » ، تتمثله فى ذهنك ، وتتصوره فى مخيلتك ، ثم بعد ذلك تربطه بالنظم القائمة بالفعل . أى أنك ترسمه فى ذهنك ثم يدفعك هذا على أن تأخذ نفسك على التطبيق بالفعل فى سبيل الوصول إليه . مع العلم بأن المثل الأعلى من شأنه أن يفر منك كلما وصلت إليه . فشلا قد يكون فى نظر طالب أن يجتاز امتحانه بنجاح . فإذا ما نجح فرّ منه إلى نيل وظيفة ، ثم إلى ترقية فى العمل . وهكذا يجرى منا المثل ونحن وراءه حتى تنتهى الحياة .

والمثل — غالباً — ينتزعه الإنسان من بيئته التى يعيش فيها : فمن يعيش فى بيئة « لصوص » يرسم مثله فى أن يكون لهم زعيماً ، ومن يعيش فى بيئة صلاح وتقوى يتخيل مثله فى أن يكون بطلاً فى صورة « واعظ » ديفى

أو « مصلح ، اجتماعي والذي يشب في بيئة سياسية يتصور مثله في أن يكون
« زعيماً ، لامة ، أو رئيس حزب سياسي ، إلى آخر ما ينتزعه الناس من
بيئتهم التي يعيشون فيها .

وإذا كنت ترى بعض المثل تافهة غير مناسبة ، وترى بعضها مناسباً
فهل هناك من مقياس تقيس به « المثل الأعلى ، بصفة عامة ؟

المقياس أن يطابق المثل « الأخلاق ، و « الجمال ، و « العقل ، فإذا
تمشى المثل مع هذه الأشياء كان مثلاً مناسباً ، وإلا فهو غير مناسب .
وسير العطاء هي ذخيرة المثل العليا المناسبة .

والقاعدة الذهبية التي ينبغي أن يقام عليها « المثل الأعلى ، هي هذه :
« لا ملك للإنسان على الحقيقة إلا ما تملكه نفسه لا ما تملكه يده ،
فما تملكه في الحقيقة هو ما كان في نفسك ، وكل ما عدا ذلك فهو
في يد الدهر لا في يدك — أنت — فلأن تكون كعمر بن الخطاب
في عدله ، خير ألف مرة ومرة من أن تكون كقارون في « ماله ، ولأن
تكون كأبي العلاء في « شاعريته ، خير ألف مرة ومرة من أن تكون
كالإسكندر في ملكه . فالغنى « غنى النفس ، وقوتك يجب أن تنبع من
ذاتك أنت لا أن تستمد من شيء خارج عنك ، وترى الذين يستمدون
قوتهم من شيء خارج عنهم . تراهم يضعفون بزوال سبب هذه القوة فالذي
يملك « عزبة ، يضعف بضياعها منه . والذي يملك « مصنعاً ، يضعف بذهابه
عنه . والذي يستمد قوته من « وزارة ، أو « إمارة ، يضعف بسقوط
الوزارة ، أو ذهاب الإمارة . أما أولئك الذين تنبع قوتهم من ذاتهم ،

ويستمدونها من أنفسهم فهم أقوياء حتى بعد أن يفارقوا هذه الحياة ، أقوياء
بنفوسهم ، وبآثارهم التي خلفوها لنا في بطون التاريخ ، وعلى ظهر
هذه المعمورة .

أنظر إلى الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين . أو انظر
إلى العلماء ، والشعراء ، والأدباء ، والفلاسفة ، ورجال الفن ، فهل ترى
التاريخ قد خلد لهم لضياع كانوا يمتلكونها ، أو لمال كانوا يفتنون به ، أو لجاه
وسلطان كانوا يتمرغون فيه . إنه لم يخلدهم إلا لقوة نبعت من ذواتهم هم ،
ومن أنفسهم هم فكانوا على الدهر ورغم أنف الدهر خالدين .

وليس معنى هذا أننا نُحَقِّرُ الماده ، أو ندعو للإعراض عن الماده .
كلا : فالماده عصب الحياة ، أو هي وسيلة الحياة ، بل بدونها لا يمكن أن
تكون حياة . إنما المسألة الغنية عن البرهان ، والتي ينبغي أن يفهمها الشباب
جيذا ، وأن يقف عندها طويلا ، ويعمل لها كثيرا هي أنه « لا ملك على
الحقيقة إلا ما تملكه النفس » ، أماما تملكه اليد فهو وإن كان ملكا إلا أن
الدهر يملكه أكثر منك . . . وهذا هو مادعا « ديوجين » - تلميذ أنتستين -
إلى أن يقول - لما وقع أسيرا في يد الأعداء ، وعرض للبيع في السوق .
ولمَّحَ شريفاً من أشراف القوم في زينته وخيلائه : « يبعونى من هذا فأنى
أراه يحتاج إلى سيد ، وهو بهذا يشير إلى أن بعض الناس يفهم أن « سيادته
في ملابس فاخر ، أو مركب أنيق ، أو في خدم وحشم على طول الطريق
وعرضه . وهؤلاء « عبید ، هذه النظرة الخاطئة في نظر هذا الفيلسوف
« الساخر ، وفي نظر من يفهم الحياة على وجهها الصحيح .

إن هذا الفيلسوف لم يصفهم بهذا الوصف إلا لما كان يشعر به من لذة
السيادة على نفسه . وهل جهادك في سبيل الحصول على « مثلك » إلا وسيلة
بها تتعود أن تكون على الحقيقة « سيداً » ١١١٩

إن ما في العالم من « نفاق » سببه « الفقر » لا في المال ، وإنما الفقر
في « النفوس » . . . ألسنت ترى أن نفس « ديوجين » هذا كانت من أغنى
النفوس بما عندها من معانٍ هي أسمى من المال وما في حكم المال ؟ وهل
هناك أسمى من أن تكون بنفسك غنياً وعلى نفسك سيداً ١١١٩

والسبب في أن بعض الناس يفشلون في هذه الحياة أنهم لا يرسمون
لأنفسهم مثلاً أعلى يهدفون إليه ، أو أنهم لا يعرفون أن يرسموا لأنفسهم مثلاً
يولون وجوههم شطره ، بل يعيشون في هذه الحياة كيفما اتفق ، وهؤلاء
في حاجة كبرى إلى أن يتذوقوا لذة الحياة ، وهذا يتطلب نشاطاً لا يفتقر ،
واعتماداً على النفس ، وقدرة على أن تكافح وتكافح في سبيل « مثل أعلى »
تهدف إليه .

إن المشرفين على « توجيه » النشء إن في الأسرة ، أو في المدرسة ،
أو في غير الأسرة وفي غير المدرسة عليهم وعلى رجال الإصلاح الاجتماعي
على وجه عام أن يلفتوا النظر دائماً إلى وجوب أن يكون للفرد مثل أعلى
يهدف إليه ، وعليهم أن يعودوهم على أن يحاسبوا أنفسهم على ما قطعوا
في سبيله ، على أن يحملوا « المشغل » أمامهم دائماً .

قابلي مرة طالب سمعني أوجه أبنائي إلى أن يرسم كل لنفسه « مثلاً أعلى »
يحبس نفسه في سبيله سنوات معدودات على معنى أنه لا يعرف في عشر

سنوات مثلاً إلا أن يسعى إلى مثله ، وإلا أن يحاسب نفسه على ما قطع في سبيل مثله ، وإلا أن يخلص إلى مثله الإخلاص كله والسعي كله . قاباني فطلب أن أرسم له « مثلاً » فبينت له خطأ هذا « الطلب » وأنه ينبغي أن يرسم هو لنفسه مثله ، على ضوء ميوله ، ومشاعره . فقال : ميولى ومشاعرى فى أن أكون « كاتباً » ينثى وحي ضميره فى صفحات تطير فى أنحاء الأرض فيقرؤها أكثر خلق الله . فما هو الطريق ؟

فقلت له : احفظ القرآن الكريم . وكذا . . . من أحاديث رسول الله صلوات الله عليه . وكذا . . . من خطب العرب . وكذا قصيدة من عيون الشعر واقراً التاريخ ، و . . . إلى آخر ما يلزم لهذا « المثل » على أن تكتب بالفعل من آن لآخر ، وعلى أن تستمر لذلك فى عمل هادى متواصل مستمر مدة كذا . . . سنة . فقال : ومن أين لى هذا العمل الهادى المتواصل المستمر وأنا أشتغل « جرسون » فى مقهى لأستعين لا على طلب العلم فانتشار الكتب وسهولة اجتلابها يسهل الأمر ولكن لأستعين على « لقمة العيش » وفى « بيته » تحتقر « الفقير » ولا ترحم ذوى الفاقة . فقلت له : فليكن « مثلك » أن تقتلع هذه الأغراس اللثيمة من تربة النفس بعملك مهما لبست له المسوح وشددت الحبل فى وسطك ، وليكن لك فى أبى تمام خير قدوة ، فلقد كان يطوف على « حلقات » الدروس فى جامع عمرو يسقى الماء . وكأنى أتخيله الآن ينحنى يصب الماء من « إبريقه » وهو يقول :

لا يحسم العقل والدنيا تساس به ما يحسم الصبر فى الأحداث والنوب
فتركنى مدة إلى أن قابلته من أيام يقول : لبثت سنوات أبحث فى سير

العظماء عن الينايع الباطنة الخفية التي تكفل التوفيق في سبيل « المثل الأعلى »
فما وجدت إلا « الصبر » على العمل ينبوعا .

وإذا كان « المثل الأعلى » يختلف : بين مثل أعلى « للدعوة » ومثل
أعلى « للشخصية » ومثل « للبيان » ومثل في الأخلاق إلى آخر ما يكون من
مثل فإن محمد بن عبد الله صلوات الله عليه خير مثل في هذه النواحي جميعها .
ولنضرب مثلاً من خلقه لعلنا على ضوئه نسير .

لما رأت قريش « أن دم الشهيد هو الذي يسقى بذور الدين الجديد »
رأوا أن يغروا الرسول بعرض الحياة الدنيا لعل ذلك يصرفه عن تسفيه
أحلامهم ، وتحقير دينهم ، فتقدموا إليه وهو جالس في الكعبة ، وقال له
كبيرهم « عتبة » - نائب قريش - : « يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت
من البسطة في العشيرة ، والمكان في النسب . وإنك قد أتيت قومك بأمر
عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ،
وكفّرت به من مضي من آباءهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر
فيها لعلك تقبل منها بعضها ، فقال رسول الله ﷺ : « قل يا أبا الوليد ،
أسمع » قال : يا ابن أخي ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر
مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت إنما تريد به
شرفاً سودناك علينا حتى لا نتقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد ملكاً
ملكناك علينا . وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً من الجن لا نستطيع رده
عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، حتى إذا

فرغ «عتبة» ورسول الله يستمع منه قال : أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال :
نعم . قال : فاستمع مني (١) :

بسم الله الرحمن الرحيم

حم ، تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ
قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ، بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ
أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ، وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا
تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ
إِنَّا عَامِلُونَ ، قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىَّ أَنَّمَا
إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ
لِّلْمُشْرِكِينَ ، الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ،
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ،
قُلْ أَتُنْكُمُ الشَّكْفَرُونَ الَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ
وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًّ
مِّنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ
سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ، ثُمَّ انْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا
وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ، فَقَضَاهُنَّ

(١) المثل الأعلى في الأنبياء تأليف « خ . كمال الدين » تعريب أمين محمود

الشريف ص ٩٧

سَمِعَ سَمَوَاتِ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزِينَا
السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ، فَإِنْ
أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ،
إِذْ جَاءَ نَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا
إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ
بِهِ كَافِرُونَ » (سورة فصلت من آية ١ — إلى ١٤) .

ولما انتهى رسول الله صلوات الله عليه إلى قوله تعالى : « لَا تَسْجُدُوا
لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ
تَعْبُدُونَ » لما انتهى إلى هذه الآية « سجد » لله ، ثم رفع رأسه فقال : سمعت
يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك .

انظر إلى هذا المثل الأعلى في الخلق فهل ترى له نظيرا ؟
واستمع إليه صلوات الله عليه في موقف آخر يشبه هذا الموقف يقول :
« ما جئت بما جئتم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ،
ولكن الله بعثني إليكم رسولا ، وأنزل علي كتابا ، وأمرني أن أكون لكم
بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالات ربي ، ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني
ما جئتم به ، فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر
الله حتى يحكم الله بيني وبينكم » .

وهكذا كان صلوات الله عليه يعتصم بالصبر في انتظار النصر .
فهل لنا أن نتخذه مثلا ؟